المشاكل السياسية والحلول الإدارية الخاصة بها

أ. د. مروان إبراهيم القيسي(*)

إن تميز الإسلام عن سائر الأنظمة والأديان بوصفه نظاماً شاملاً للحياة يقتضي أن يضم بين جنباته حلولاً للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها. وذلك يجعل من المستحيل على الداعية والعالم المسلم أن ينأى بنفسه عن السياسة ومشكلاتها. وبديع الزمان ليس استثناءً من مجموع علماء ودعاة الأمة، ولا سيما أن الفترة التي عاشها كانت تموج بالمشاكل السياسية وما ترتب عليها من مضاعفات سلبية على مجمل حياة المسلمين -ولا سيما الجانب الديني منها- في تركيا وأنحاء العالم الإسلامي الأخرى.

وعند البحث في فكر بديع الزمان في كليات النور نجد أنها ليست سواء في توفرها على فكره السياسي. وأكثرها تضمناً له هي سيرته الذاتية.

والحق أن المتصفح لكليات رسائل النور يجد أن ثمة مادة علمية غزيرة، وقد وقع اختياري على بعض مشاكل سياسية ليُصار إلى بحثها، لكنني وجدت نفسي- نظراً لغزارة المادة السياسية في الكليات- مضطراً للاقتصار على واحدة منها، عملاً برغبة القائمين على المؤتمر من حيث عدم تجاوز خمسة عشرة صفحة في كل بحث يُقدم. والمشكلة التي اخترتها للبحث هي وحدة الجبهة الداخلية.

إن القارئ لكليات رسائل النور ليلمس بوضوح وعي بديع الزمان البالغ بظروف تركيا وقتئذ وإدراكه لما تمر به، ولما قد ينتج عنه. فقد كان الظرف مفصلاً تاريخياً بين الماضي التليد والمستقبل المجهول، وفي المكتوب الثاني والعشرين من مكتوباته يقول: (إن أشد القبائل تأخراً يدركون معنى الخطر الداهم عليهم، فتراهم ينبذون الخلافات

(*) جامعة اليرموك – الأردن. alqaisy50@gmail.com

الداخلية وينسون العداوات الجانبية عند إغارة العدو الخارجي عليهم)[١]. وقد أكّد في غير ما موضع من رسائله على أهمية وحدة الأمة التركية وضرورة أن لا يكون الخلاف بين الأفراد حول الأمور السياسية أو غيرها سبباً في التنازع وبيّن بوضوح ما يعنيه ما روي من أن اختلاف الأمة رحمة لها[٢]، وناشد تلاميذه أن لا يهاجموا بعض العلماء الذين ظنوا بعض إلجاءات العصر ضرورة، فركنوا إلى البدع، وبيّن الفرق بين الجهاد الخارجي والجهاد الداخلي الذي ينبغي أن تكون غايته الحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية[٣].

غير أن إسهام بديع الزمان في تماسك الجبهة الداخلية في وقت عصيب لم يقتصر على التأكيد على ضرورته، وإنما تجسدت معالجته لهذه المعضلة الخطيرة الشأن باقتراح الحلول من خلال تفصيل أسباب الوحدة ليُصار للأخذ بها، وبيان موانعها ليُصار للقضاء عليها، ثم إسهامه الفعلي في صيانة وحدة الجبهة الداخلية، ذلك الشأن العظيم الذي لا يقل أهمية عن الأمن الخارجي، والذي له من الأهمية ما له في حياة الأمم والأفراد.

أسباب صيانة وحدة الجبهة الداخلية:

لقد أشار بديع الزمان إلى الداء وحذّر منه ووصف الدواء بدقة. وعندما نستعرض الحلول التي نادى بها نجد أنها تصلح لكل مجتمع مسلم يرغب أفراده وترغب قيادته في الحفاظ على تماسك جبهته الداخلية. ومما أكّد بديع الزمان على أهميته في مواضع متفرقة من رسائله مما له أهمية بالغة في تماسك الجبهة الداخلية ما يأتي:

أولاً: الإسلام:

إن إشاعة الوعي والثقافة والفكر الإسلامي بين أبناء المجتمع يُعد العامل الأول والأهم في تحقيق وحدة الجبهة الداخلية وتماسكها، فالتوحيد واجتماع الأمة على وحدة العقيدة والشريعة يُوحد الآمال والطموحات والتصورات والآلام والأفكار، وكما يقول بديع الزمان: (نحن منذ الأزل داخلون في الجمعية المحمدية، فالتوحيد هو جهة

---

(١) مكتوبات، ص٣٤٩.

(٢) المكتوبات، ص٣٤٦.

(٣) سيرة ذاتية، ص٤٧٠-٤٧١.

الوحدة والاتحاد فيما بيننا، وقسمنا وعهدنا هو الإيمان)[١] كما يقول: (إن تباين الأفكار هذا قد هزّ أساس الأخلاق الإسلامية وفرّق اتحاد الأمة. وعلاج هذا الداء هو الصلح النابع من توحيد الأفكار، وربط العلاقات ووصلها حتى يوصل إلى نقطة الاعتدال، فيتصافح الجميع، ويتفقوا جميعاً لئلا يخلّوا بنظام الرقي)[٢].

وفي بيانه لدور الإسلام في تحقيق الوحدة، يبين بديع الزمان دور وأهمية وجود نقطة استناد للأمة: (لقد اشتهر أحدهم بقوله: "أستطيع أن أحرك الكرة الأرضية من مكانها إذا وجدت نقطة استناد" ففي هذا القول المفترض نقطة عجيبة هي: أن هذا الإنسان الصغير جداً إذا ما وجد نقطة استناد يستطيع أن يُدير أعظم الأشياء كالكرة الأرضية)[٣] ثم يعقب على ذلك بقوله: (إن نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي، التي ألقت بثقلها العظيم، عظم الأرض، على العالم الإسلامي، هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة، وبالتعاون الذي تولده الأخوة)[٤]. وفي تأكيده على دور الإسلام وفضله يقول: (ثم إن المسلم يختلف عن أفراد الأمم الأخرى، إذ لو تخلى عن دينه فلا يكون إلا إرهابياً فوضوياً لا يقيده شيء أياً كان، بل لا يمكن إدارته بأي من وسائل التربية والإدارة إلا بالاستبداد المطلق والرشوة العامة)[٥].

دور رسائل النور:

وإذا كان الإسلام وثقافته هي العامل الأول والحاسم في توحيد الأمة في وقت عصيب، فماذا عسى بديع الزمان وطلاب النور فعله. إنه التربية الإسلامية: (إن أجزاء رسائل النور التي ليست سوى علوم إيمانية، تؤسس الأمن والنظام، ذلك لأن الإيمان الذي هو منبع الخُلق الحسن والخصال الحميدة ومنشؤها، لن يخل بالأمن بل يحققه ويضمنه. أما ما يخل بالأمن فهو عدم الإيمان بسوء خلُقه)[٦]. كما يقول: (ألا فليعلم

---

(١) صيقل الإسلام، ص٥٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٧٣.

(٣) صيقل الإسلام، السانحات، ص٣٦٩.

(٤) المرجع السابق.

(٥) سيرة ذاتية، ص٣٨٠، والشعاعات (الشعاع الرابع عشر) ، ص٥٦٣.

(٦) المرجع السابق، ص٢٥٨.

أهل السياسة علماً قاطعاً رغم أننا لا علاقة لنا بهم: أن العلاج الوحيد لإنقاذ الأمة في هذه البلاد وفي هذا العصر من الفوضى والإرهاب ومن التردي المريع والتدني الرهيب هو أسس رسائل النور...)[١].

ثانياً: العدل:

وإشادة بديع الزمان بأهمية العدل في سياق دفاعه عن نفسه وعن طلاب النور لا يعني تحديد الحاجة للعدل بحاجته وحاجة طلاب النور إليه، فقد ورد تأكيده على أهمية العدل في سياقات متعددة، وذلك لإدراكه خطورة شأنه في تحقيق انتماء الأفراد للأمة وإخلاصهم لها. وفي هذا يقول: (فالموت مظلوماً هو خير من العيش ظالماً). وفي موضع آخر يشير لسبب من أسباب دعوته لحقائق الشريعة فيقول: (لو كان لي ألف روح، لكنت مستعداً لأن أضحي بها في سبيل حقيقة واحدة من حقائق الشريعة، إذ الشريعة سبب السعادة وهي العدالة المحضة)[٢].

التأثير في القائمين على شؤون القضاء:

ولاهتمامه البالغ بتحقيق العدالة حاول التأثير على نفسيات القائمين على دوائر العدل من خلال خطابه لهم أثناء محاكماته العديدة ويقول: (وإن العاملين في دوائر العدل هم أشد حاجة من الموظفين الآخرين إلى القواعد والدساتير السامية التي تتضمنها رسائل النور)[٣].

إن تثقيف القائمين على دوائر العدل والعاملين فيها بالأفكار الإسلامية التي تتضمنها رسائل النور إنما هي وسيلة تصلح في كل زمان ومكان في العالم الإسلامي لصقل أرواح القائمين على شؤون القضاء مما يدفعهم لإنصاف المظلومين، حتى في ظل القوانين الجائرة، وقد قيل: (إن الدستور العادل في يد قاضٍ جائر شر من الدستور الجائر في يد قاض عادل).

ولا يقتصر دور الدعاة على التأثير غير المباشر على العاملين في دوائر العدل من خلال الأفكار الإسلامية السديدة، بل ينبغي أن يتضمن دورهم أيضاً مخاطبة المسؤولين

---

(١) الملاحق، ص١٥٩.

(٢) سيرة ذاتية، ص١٠٨.

(٣) الشعاعات، ص٥٢٤.

عن القضاء مباشرة كما تكرر ذلك من بديع الزمان إبان محاكماته: (حيث إن واجب دوائر العدل هو الحفاظ على الحقوق ومنع المتعدين من التجاوز)[١].

الإحاطة بأحوال الرعية ضرورة للعدل:

ولما كان ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كان لا بد من القائمين على شؤون الحكم والقضاء الإحاطة بمجريات الأمور وتفاصيلها في الأمة، ليكون من الممكن إنصاف من لا يستطيع رفع شكايته من المظلومين: (أيها الحكام ويا من تسلمتم أمر البلاد، إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان-عليه السلام- واسعوا مثله إلى مشاهدة ما يجري في الأرض كافة ومعرفة ما يحدث في جميع أرجائها، فالحاكم العادل الذي يتطلع إلى بسط راية العدالة في ربوع البلاد، والسلطان الذي يرعى شؤون أبناء مملكته ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا استطاع الإطلاع –متى شاء- على أقطار مملكته. وعندئذ تعم العدالة حقاً، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية)[٢].

استقلال القضاء:

ولم يغفل بديع الزمان عن أهمية استقلال القضاء في تحقيق أهم أسباب وحدة الجبهة الداخلية وأعني العدل، فيقول في مرافعاته أمام واحدة من محاكماته: (إن المحاكم-بلا ريب- أكثر دوائر الدولة المكلفة بالمحافظة على حريتها بأعظم قدر، واستقلالها عن المؤثرات الخارجية، ما أمكنها، وحيادها والنظر بعيداً عن الأحاسيس والأهواء ما استطاعت)[٣].

مصالح الأكثرية:

إن الحرص على مصالح الأكثرية يسهم إلى حد كبير في تحقيق انتمائها للأمة، وبالتالي يؤدي إلى تماسك الجبهة الداخلية ووحدتها. وعكس ذلك يؤدي إلى عكسه. يقول بديع الزمان: (إن سياسة المدنية الحاضرة تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحي قلة قليلة من الظلمة بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها. أما عدالة القرآن الكريم، فلا تضحي بحياة بريء واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل

---

(١) الملاحق، ص٢٣٦.

(٢) الكلمات، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٣) سيرة ذاتية، ص٢٦٢.

الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة، ذلك الدستور العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية)[١].

القوة والمنفعة مقاييس خطيرة:

لقد حذّر بديع الزمان من خطورة تركز الحياة على القوة والمنفعة والصراع[٢]، وأكد على طبيعة التكامل بين مصالح الأفراد والجماعة[٣] وأنذر أن الطغيان يجلب المصائب[٤] ولا شك أن هذه أسس ثلاث كي يسود السلام في المجتمع الإنساني الواحد وبين الأمم كافة. فما يُشاهد الآن من نزاعات دولية أو من تفكك للوحدة الداخلية للمجتمع الواحد لا تخرج أسبابه عن هذه الأسباب.

ولم يقتصر بديع الزمان على بيان أسباب التفكك والصراع، وإنما عارض الاستبداد الواقع بموقفه الواضح ضد ظلم الاتحاد والترقي[٥]، ووقف موقف المعارض ضد فصل الموظفين من جهاز الدولة[٦]، وضد معاملة المسجونين معاملة غير إنسانية[٧].

ثالثاً: الشورى:

لا شك أن اتخاذ الشورى مبدأ وقاعدة في الحياة السياسية والإدارية يلغي استبداد السلطة الحاكمة بآرائها وتصرفاتها. فالمسؤولون كيفما كانوا وبأية درجة عالية من الصدق والنزاهة اتصفوا، فإنهم يظلون غير معصومين، وبالتالي يكون مستقبل الدولة والمجتمع معرضاً للخطر، واستشارة الخبراء يقلل من إمكانية الخطأ ويقرب الأمور للصواب.

إن استشارة السلطة السياسية والتنفيذية لكبار أصحاب الخبرات تمثل عملاً سياسياً ضرورياً لنجاح الدولة في تدبير شؤون الأمة، وهي تشكل منهجاً حيوياً يتوقف عليه

---

(١) الكلمات، ص٨٦٢.

(٢) الكلمات، ص٤٧٢، ٨٥١.

(٣) الملاحق، ٣٧٦.

(٤) سيرة ذاتية، ص١٠٨.

(٥) مرجع سابق، ص١١١.

(٦) صيقل الإسلام، ص٤٧٢.

(٧) شعاعات، ص٣٧١.

انتصار العلم والخبرة التخصصية للمجتمع، والتزام السداد في شؤونه، كما يتوقف عليه احترام العقل في الدولة واحترام الإنسان في ظلها، وهي ضمانة سياسية لاستقرار الدولة وحمايتها من الضعف، وهي سبيل رئيسي لسلامة المجتمع من الفوضى، وسلامة الدعوة الإسلامية من العثار حين أداء دورها العظيم في العالم.

وقد تنبّه بديع الزمان ونبّه لأهمية الشورى ودورها في وحدة المجتمع فقال في اللمعة الحادية والعشرين: (إن الشورى الحقُ تولد الإخلاص والتساند، إذ إن ثلاث ألفات هكذا (١١١) تصبح مائة وأحدى عشرة، فإنه بالإخلاص والتساند الحقيقي يستطيع ثلاثة أشخاص أن يفيدوا أُمتهم فائدة مائة شخص)[١]. كما يقول في خطبته الشامية: (إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو "الشورى" وسبب تخلف القارة الكبرى التي هي آسيا عن ركب الحضارة إنما هو لعدم قيامها بالشورى)[٢].

رابعاً: الحرية:

هل أدرك بديع الزمان بثاقب نظره ما للحرية من دور بالغ الأهمية في وحدة المجتمع وترابطه وتقدمه؟ في خطابه إلى الحرية يقول: (أيتها الحرية الشرعية إنك تنادين بصوت هادر ولكنه رخيم يحمل بشارة سارة. وإذا ما اتخذتك الأمة مرشدةً لها، ولم تلونك بالمآرب الشخصية، فقد أخرجنا إذن من له العظمة والمنة من قبر الوحشة والاستبداد، ودعانا إلى جنة الاتحاد والمحبة)[٣].

وفي دفاعه أمام محكمة أفيون يبين بديع الزمان أهمية الحرية الشخصية[٤]. وفي بيانه لدور الحرية –ولا سيما حرية الفكر– في قوة الدولة والأفراد يقول: (فإذا ما عاشت هذه الحرية الشرعية العادلة، ولم تفسد فستكسر أغلال فكر الإنسان، وتحطم المواقع الموضوعة أمام استعداده للرقي، فتوسع ميدان حركته سعة الدنيا كلها. وإذا ما سقيت الاستعدادات المغروزة في الإنسانية بغيث الحرية، فإنها تتحول إلى شجرة طوبى من الأفكار النيرة وعند أغصانها إلى كل جهة)[٥].

---

(١) الخطبة الشامية، صيقل الإسلام، ص٥١٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥١٤.
(٣) صيقل الإسلام، ص٤٦٥.
(٤) الشعاعات، ص٤١٧.
(٥) صيقل الإسلام، ٤٧٠.

وفي تأكيده مرة أخرى على دور الحرية في الوحدة يقول بديع الزمان: (إن صدى الحرية والعدالة ينفخ نفخ إسرافيل، فيبعث الحياة في مشاعرنا المدنية وآمالنا الخامدة ورغباتنا القومية وأخلاقنا الإسلامية. وإن هذا الاتحاد اتحاد القلوب والمحبة الموجهة للأمة كافة، وهي معدن السعادة والحرية)[١].

وإذا ما نظرنا في أحوال الدعاة والحركات الإسلامية في هذا الزمان، بل وفي كل زمان منذ أن فقدت الخلافة لوجدن أن أحوج ما يحتاجه الدعاة هو جو الحرية. وقد كان هذا حال زمان بديع الزمان مما دفعه للمطالبة بحرية الفكر والعمل محتجاً بما كانت تزعمه حكومات الجمهورية التركية فيقول: (إننا جعلنا حرية الوجدان والعقيدة التي اتخذتها حكومة الجمهورية أساساً لها مدار استنادٍ لنا، ودافعنا عن حقوقنا بهذه المادة)[٢].

ترشيد الحرية بالشريعة:

إن الحرية وإن كانت مناخاً ضرورياً تنمو فيه الوحدة الوطنية، إلا أنها دون ترشيد يمكن أن تكون خنجراً في بنيان وحدة المجتمع، إذ تكون عندئذ سبباً في اعتزاز كل فرد بهواه ورأيه وعمله. أما بإشاعتها مرشدةً منضبطةً فإنها تشد أطراف المجتمع إلى بعضها بعضاً. وفي هذا يقول بديع الزمان (إن لم تُرب الحرية بالتربية الإسلامية فستموت, ويولد مكانها الاستبداد المطلق)[٣] ويقول: (أما الحرية المطلقة فما هي إلا الوحشية المطلقة، بل بهيمية، وتحديد الحرية ضروري من وجهة نظر الإنسانية)[٤] ويقول: (يا أبناء الوطن لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق الفاسد في إناء آخر، ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها والتخلق بالأخلاق الفاضلة)[٥].

مطالبة منطقية بالحرية:

لقد اتخذ بديع الزمان من علمانية الحكومة التركية وسيلة يحتج بها على حرمان

---

(١) المرجع السابق، ٤٦٦.

(٢) الشعاعات، ٤٣٠.

(٣) سيرة ذاتية، ص٧٩.

(٤) الخطبة الشامية، ص٥٣٥.

(٥) صيقل الإسلام، ٤٦٧.

الدعاة من الحرية وإطلاق العنان للإلحاد والدعوة إليه: (أما إن كان سؤالكم حول الجمهورية العلمانية فإن ما أعلمه هو أن معنى العلمانية هو البقاء على الحياد، فكما لا تتعرض مثل هذه الحكومة للملحدين ولأهل السفاهة بحجة حرية الضمير، فيجب ألا تتعرض لأهل الدين ولأهل التقوى)[١]. وفي دفاعه أثناء محاكمته يقول: (لماذا سمحتم لكتب إلحادية ولكتب تهاجم الإسلام بصراحة أمثال كتاب "تاريخ الإسلام "للدكتور دوزي وامتلأت بها مكاتبكم وسمحتم بقراءتها بكل حرية ولطلابها بتشكيل الجمعيات حسب قوانينكم؟ ولماذا لا تتعرضون أبداً للإلحاد ولا للشيوعية ولا للفوضى ولا للمنظمات المفسدة العريقة ولا للطورانية العنصرية مع أنها تتعارض مع سياستكم؟ وتتعرضون لأشخاص لا علاقة لهم قطعاً بالسياسة، بل همهم الوحيد سلوك طريق الإيمان والطريق القويم للقرآن الكريم)[٢].

وفي موضع آخر من رسائله يقول: (ثم إننا جعلنا حرية الوجدان والعقيدة التي اتخذتها حكومة الجمهورية أساساً لها، مدار استناد لنا، ودافعنا عن حقوقنا بهذه المادة، ولكن اتخذتها المحكمة مدار مسؤولية وكأننا نعارض حرية الوجدان والعقيدة)[٣]. وفي خطابه إلى أعضاء المجلس النيابي المتدينين، يقول: (إن مصلحة الإسلام والبلاد تقتضي قبل كل شيء إقرار قانون حرية المتدينين وتنفيذه فوراً في المدارس، لأن هذا التصديق يكسب هذه البلاد القوة المعنوية لأربعين مليوناً من المسلمين في روسيا، وأربعمائة مليوناً من المسلمين عامة ويجعل تلك القوة ظهيرةً لنا. إذ مما لا شك فيه أن الحقائق القرآنية والإيمانية هي التي صدت اعتداء روسيا علينا)[٤].

عقبات على طريق الوحدة الوطنية:

وقد ألفيت منها في كليات رسائل النور ثلاثاً هي الحزبية، والإلحاد، والصحافة غير المسؤولة. وقد نبّه بديع الزمان على خطرها على وحدة الأمة، ولا تزال هذه الثلاث تُشكّل تهديدات للوحدة الداخلية لأي مجتمع مسلم.

---

(١) الشعاعات، ص٤٢٦.

(٢) سيرة ذاتية، ص٣٤٤.

(٣) مرجع سابق، ص٣٣٨.

(٤) الملاحق، ص٤٣٧.

أولاً: الكفر والإلحاد:

كان الإسلام ولا يزال عاملاً مهماً من عوامل وحدة المجتمع المسلم، بل من المعلوم أن فعالية الإسلام في تجانس وانسجام أي مجتمع مسلم مؤثرة إلى حد تجسيد التجانس والتآلف والترابط بين مواطني ذلك المجتمع مسلمين وغير مسلمين. ولكن بانهيار الخلافة العثمانية فإن الأوضاع قد تغيرت فصارت الساحة نهباً لكل التيارات الحاقدة، وفي مقدمتها الشيوعية والماسونية. وقد أدرك بديع الزمان مضاعفات ذلك على وحدة المجتمع في تركيا فقرر قيام علاقة بين الإلحاد والفوضى فقال: (إن أخطر شيء في هذا الزمان هو الإلحاد والزندقة والفوضى والإرهاب. وليس تجاه هذه المخاطر إلا الاعتصام بحقائق القرآن. وبخلاف ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن تجابه هذه المصيبة البشرية التي دفعت الصين إلى أحضان الشيوعية في زمن قصير. ولا يمكن إسكاتها بالقوى السياسية والمادية، فليس إلا الحقائق القرآنية التي تستطيع أن تدفع تلك المصيبة)[1].

وكي لا يقع أفراد المجتمع ضحية لمحاولة السلطة السياسية التركية في تقليدها ومحاكماتها النظم السياسية الغربية في نهجها بتقسيم النشاط السياسي إلى يمين ويسار ووسط ويمين الوسط و...الخ، بيّن بديع الزمان وبرهن أن هذا غير ممكن في مجتمع مسلم كالمجتمع التركي له خصوصياته الثقافية والتشريعية والتاريخية فيقول: (إنه لا وسط بين الكفر والإيمان، ففي هذه البلاد وتجاه مكافحة الشيوعية فليس هناك غير الإسلام؛ وليس هناك وسط. لأن التقسيم إلى يمين ويسار ووسط، يقتضي ثلاثة مسالك. وهذا قد يصدق لدى الانكليز والفرنسيين، إذ يمكنهم أن يقولوا اليمين الإسلام واليسار الشيوعية والوسط النصرانية. إلا أن الذي يجابه الشيوعية –في هذه البلاد- ليس إلا الإيمان والإسلام. فليس هناك دين ومذهب آخر يجابهها إلا التحلل من الدين والدخول في الشيوعية، لأن المسلم الحقيقي لا يتنصّر ولا يتهود، بل –إذا خلع دينه- يكون ملحداً فوضوياً إرهابياً.

كما أدرك وزير المعارف والعدل هذه الحقيقة سيدركها بإذن الله سائر الأركان في الحكومة حق فهمها، فيحاولون الاستناد إلى قوة الحق والحقيقة والقرآن والإيمان بدلاً

---

(١) الملاحق، ص٣٤٤.

من اليمين واليسار، وينقذون بإذنه تعالى هذا الوطن من الكفر المطلق والزندقة ومن دمارهم الرهيب. فنحن نتضرع إليه تعالى بكل كياننا أن يوفقوا في ذلك)[١].

ثانياً: الحزبية:

كان التحزب ولا يزال مظهراً مهماً ورئيساً من مظاهر الحياة السياسية في الدول الغربية باعتباره ركناً من أركان الديمقراطية الغربية، فهل يصلح للأمة المسلمة؟ وما كان موقف بديع الزمان منه؟

يقول بديع الزمان: (لقد طرق سمعي أن جمعية باسم "الاتحاد المحمدي" قد تأسست، فتوجست خيفة شديدة، من صدور حركات خاطئة من بعضهم تحت هذا الاسم المبارك. ولكن الاتحاد المحمدي الذي أعرفه وانضممت إليه هو الدائرة المرتبطة بسلسلة نورانية ممتدة من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال. فالذين ينضوون تحت رايتها يتجاوز عددهم ثلاثمائة مليوناً في هذا العصر، وإن جهة الوحدة والارتباط في هذا الاتحاد هو توحيد الله. والمنتسبون إليه جميع المؤمنين منذ الخليقة. وسِجل أسماء أعضائه هو اللوح المحفوظ. وناشر أفكاره جميع الكتب الإسلامية والصحف اليومية التي تستهدف إعلاء كلمة الله. ومحآل اجتماعاته ونواديه هي الجوامع والمساجد والتكايا والمدارس الدينية. ومركزه: الحَرَمان الشريفان. فجمعية مثل هذه ... رئيسها هو فخر العالمين سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. ومسلكها ومنهجها؛ مجاهدة كل شخص نفسه، أي التخلق بأخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإحياء السنة النبوية ومحبة الآخرين وإسداء النصح لهم ما لم ينشأ منه ضرر. والنظام الداخلي لهذا الاتحاد: السنة النبوية، وقانونية الأوامر الشرعية ونواهيها. وهكذا فأنا أحد أفراد هذا الاتحاد ومن الساعين لرفع رايته وإظهار اسمه وإلا فلست من الأحزاب والجمعيات التي تسبب الفرقة بين الناس)[٢].

فموقف بديع الزمان من الأحزاب السياسية -التي لا محالة تفرق الأمة قصد أصحابها أم لم يقصدوا ذلك- كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٥٩). إن موقف بديع الزمان في غاية الوضوح. إذ التحزب لا

---

(١) الملاحق، ص٣٤٦.

(٢) صيقل الإسلام، ص٤٤٥، ص٤٤٧.

يعني سوى انسلاخ فريق من الأمة عنها وتقوقعه على نفسه وأفكاره ونظرياته الخاصة به. في حين أن الانتساب إلى مجموع الأمة لا يضاهيه شيء آخر.

وتأتي توكيدات بديع الزمان في رفضه لأي تحزب من خلال تأكيده على نفي صفة الجمعية عن طلاب رسائل النور[١]. وفي ذلك حكمة بالغة، ذلك أنه أراد لطلاب النور عدم التقوقع على أنفسهم والانسلاخ عن مجموع الأمة التركية وبالتالي عدم تأثيرهم في الآخرين. وثمة حكمة أخرى هي أن أية جماعة مسلمة تشكل جمعية أو حزباً له مراكزه والعاملون فيه وأنشطته المعلومة للدولة يكون من السهل على السلطة السياسية المعادية رصدها ثم ضربها وإنهائها.

ويبين لنا بديع الزمان غايته من الدعوة للاتحاد المحمدي فيقول: (ولقد دعوت ظاهراً إلى هذا الاتحاد المحمدي من أجل مقصدين عظيمين: المقصد الأول: إنقاذ ذلك الاسم من التحديد والتخصيص، ولأعلن شموله المؤمنين عامة كي لا يقع الخلاف والفرقة ولا ترد الشبهات والأوهام. والمقصد الثاني: ليكون سداً أمام افتراق الفرق والأحزاب الذي كان سبباً في هذه المصيبة الفائتة العظيمة، وذلك بمحاولة التوحيد بينها، فيا أسفي لم يسعفنا الزمن فجاء السيل فأوقعني أيضاً)[٢].

ويشتد خطر التحزب إذا أخذ في تياره أفراد القوات المسلحة: (لقد سمعت أن قسماً من الجنود بدأوا ينتسبون إلى بعض الجمعيات، فتذكرت الحادثة الرهيبة للانكشاريين، فقلقت كثيراً واضطربت، فكتبت في إحدى الصحف: إن أسمى جمعية وأقدسها في الوقت الحاضر، هي جمعية الجنود المؤمنين. فجميع الذين انخرطوا في سلك الجندية المؤمنة المضحية ابتداءً من الجندي إلى القائد هم داخلون في هذه الجمعية. إذ إن أقدس هدف لأقدس جمعية في العالم هو الاتحاد والأخوة والطاعة والمحبة وإعلاء كلمة الله. فالجنود المؤمنون قاطبة يدعون إلى هذا الهدف. إلا أن الجنود هم المراكز، فعلى الأمة والجمعيات أن ينتسبوا إلى الجنود. إذ الجمعيات الأخرى ما هي إلا لجعل الأمة جنوداً في المحبة والأخوة. أما الاتحاد المحمدي الذي هو شامل لجميع المؤمنين فهو ليس جمعية ولا حزباً، إذ مركزه وصفّه الأول المجاهدون والشهداء والعلماء والمرشدون. فليس هناك مؤمن ولا جندي فدائي سواءً أكان ضابطاً أو جندياً خارج عن

---

(١) انظر لذلك الشعاعات، ص٤٣٣ – ٤٣٥.

(٢) صيقل الإسلام، ص٤٤٧.

هذا الاتحاد، لذا فلا داعي للانتساب إلى جمعيات أخرى. ومع هذا فلا أتدخل في أمور بعض الجمعيات الخيرة التي لها الحق في أن تطلق على نفسها الاتحاد المحمدي)[١].

ويزداد موقفه نحو التحزب وضوحاً في نفيه المتكرر لصفة الحزب أو الجمعية عن طلاب رسائل النور، بل ينفي عنهم أن يكونوا شبه جمعية (نعم، إن طلاب النور ليسوا جمعية أو شبه جمعية، ولن يكونوا)[٢]، وقد تكرر نفيه ذلك مراراً في رسائله، بل إنه ينفي عن طلابه أن يكونوا تكتلاً صوفياً مسموحاً به وذلك لبعد نظره رحمه الله، فقدر رأينا بأنفسنا في العالم العربي كيف آلت مسيرة الجماعات والأحزاب الإسلامية إلى عزلة كل منها عن مجموع الأمة[٣]، مما أدى بالتالي إلى ضعف نفوذها بين العامة وتأثيرها فيهم، فانعكس هذا سلباً على رسالة كل منها، والتي كانت ابتداءً خدمة الإسلام على مستوى الأمة فتقهقرت إلى خدمة أعضاء الحزب والجماعة. ولذا يكرر بديع الزمان حرصه على الانتماء للأمة بعامة، فيقول في محكمة دينزلي (إنني أشهد جميع طلاب النور الموجودين هنا وجميع من تحدثوا وتقابلوا معي وجميع من قرأوا أو استنسخوا رسائل النور، وتستطيعون أن تسألوا أنتم منهم بأنني لم أقل لأي أحد: أننا سنشكل جمعية سياسية أو طريقة نقشبندية، بل كنت أقول دائماً: أننا نحاول إنقاذ إيماننا، ولم يجر بيننا حديث خارج عموم أهل الإيمان وخارج الجماعة الإسلامية المقدسة التي يربو عدد أفرادها على ثلاثمائة مليون مسلم، ولم نجد لأنفسنا مكاناً خارج ما أطلق القرآن الكريم عليه اسم "حزب الله" الذي يجمع تحت ظل إخوة الإيمان جميع أهل الإيمان. ولأننا حصرنا جهدنا في خدمة القرآن فلا شك أننا من "حزب القرآن" ومن حزب الله)[٤].

ويظهر بُعد نظر بديع الزمان واستيعابه للآثار والمضاعفات التي تلحق بالدعوة الإسلامية نتيجة الحزبية في الأساس الخامس من أسس دفاعه أمام محكمة أفيون. وها أنذا أسوق نصه دون تعليق، فقد كفاني النص أي تعليق: (إن من الدساتير الأساسية لطلبة النور هو عدم التعرض قدر الإمكان للسياسة ولأمور الحكومة وشؤونها

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الشعاع الرابع عشر، الشعاعات، ص٥٦٧.

(٣) انظر سيرة ذاتية، ص٣٣٥، ٣٩٨، ٤٠٠، والشعاعات، ٤٣٣، ٣٦٨، ٤٢٧.

(٤) الشعاعات، الشعاع الثاني عشر، ص٣٣٤.

وإجراءاتها، ذلك لأن القيام بخدمة القرآن بإخلاص يكفيهم ويغنيهم عن أي شيء آخر. ثم إن الداخلين الآن ساحة السياسة مع وجود تيارات قوية سائدة لا يستطيع أحدٌ منهم أن يحافظ على استقلاليته وعلى إخلاصه، لأن تياراً من هذه التيارات سيجره إليه ويجعله يعمل لحسابه ويستغله في مقاصده الدنيوية، مما يؤدي إلى الإخلال بقدسية عمله وخدمته. ثم إن أشد أنواع الظلم مع أشد أنواع الاستبداد قد أصبحا دستوراً وقانوناً من قوانين الصراع والنزاع المادي في هذا العصر، وهذا يعني أن كثيراً من الأبرياء يذهبون ضحية خطأ فرد واحد، أو يقع هذا الفرد مغلوباً على أمره. عند ذلك يتوهم من هجر دينه من أجل دنياه أو جعل دينه وسيلة لدنياه أن حقائق القرآن المقدسة -التي لا ينبغي أن تُسْتَغل لأي شيء- قد تم استغلالها في ساحة الدعاية السياسية. ثم إن أفراد الأمة بجميع طبقاتها ... المعارضين منهم أو المؤيدين، الموظفين منهم أو العامة... جميعهم لهم حصة في تلك الحقائق القرآنية وهم بحاجة إليها، لذا كان على طلبة النور أن يبقوا محايدين تماماً، وكان من الضروري لهم عدم الخوض في السياسة وفي الصراع المادي وعدم الاشتراك فيه)[1].

ثالثاً: الصحافة:

صحيح أن الصحافة سلاح ذو حدين يمكن أن يُسهم في تعزيز الإيمان والوحدة الوطنية، ويمكن أن يفعل خلاف ذلك، إلا أن واقع الصحافة منذ انهيار الخلافة العثمانية كان بعامة عاملاً سلبياً في نشر القيم الغربية وبالتالي زعزعة أركان إيمان المجتمع ووحدته الفكرية. وإذ يُقرر بديع الزمان دور الصحافة السلبي في زمانه، فإنه لا يفوته أن يضم إلى ذلك التنبيه على المنطلقات الأخلاقية والوطنية لمهنة الصحافة الخطيرة فيقول: (لقد دأبت الصحف على زعزعة الأخلاق الإسلامية بقياسين فاسدين وبما يوهن العزة والإقدام، حتى أهلكوا الأفكار العامة السائدة. فتصديت لهم بمقالات نشرتها في الجرائد وقلت لهم: يا أرباب الصحف! على الأدباء أن يلتزموا بالآداب، وعليهم أن يتأدبوا بالآداب اللائقة بالإسلام فينبغي أن تكون أقوالهم صادرة من صدور لا تحيد لجهة، ومن قلوب عموم الناس، فيشترك معهم عموم الأمة.

ويجب تنظيم برنامج المطبوعات بما في وجدانكم من شعور ديني ونية خالصة. بينما أنتم بقياس فاسد، أي بقياس الريف باستانبول، واستانبول بأوروبا أوقعتم الرأي

---

(١) الشعاعات، ص٤٢٤.

العام والأفكار السائدة في مستنقع آسن. فنبهتم عروق الأغراض الشخصية والمنافع الذاتية وأخذ الثأر، حيث يلقن الطفل الصغير الذي لم يدرج بعد في المدرسة، الفلسفة الطبيعية المادية. فكما لا تليق بالرجل فساتين الراقصات فلا تطبق مشاعر أوروبا في استانبول. إذ اختلاف الأقوام وتخالف الأماكن والأقطار شبيهة بتباين الأزمنة والعصور. بمعنى أن الثورة الفرنسية لا تكون دستوراً لنا. فالخطأ ينجم من تطبيق النظريات وعدم التفكر بمتطلبات الوقت الحاضر.

فأنا القروي الذي لا أجيد الكتابة قد قمت بإسداء النصائح إلى أمثال هؤلاء المحررين الحاملين لأغراض شخصية ومغالطات في رؤية الأمور التي يعملون فيها بذكائهم)[١].

إسهام بديع الزمان العملي في تماسك الجبهة الداخلية:

ويظهر ذلك الإسهام في الحرص ألا يكون طلاب رسائل النور معارضة، بل عامل يسهم في استقرار الأمن، وفي إنهاء عصيان الجنود وتمردهم، وفي الحرص على معنويات الجيش، وفي إخضاع تمرد الولايات الشرقية وفي دفاعه عن السلطان عبد الحميد.

أولاً: دور طلاب رسائل النور الإيجابي في استقرار الدولة:

أكّدَ بديع الزمان على دور طلاب رسائل النور في الحرص على الأمن العام واستتبابه والنأي عن استغلال الدين وسيلةً للإخلال بأمن الدولة أو التحريض عليه، والحرص على أن تكون دروس طلاب النور ضد الفوضى والاضطرابات والتخريب، والحرص ألا تخالف رسائل النور قوانين الحكومة. بل ينبغي أن تنال التشجيع والتقدير منها[٢].

وفي درسه الأخير الذي ألقاه رحمه الله قبل وفاته على طلبة النور يقول: (إخواني الأعزاء: إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البنّاء وليس السعي للعمل السلبي الهدام. والقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي ... نعم، إن في مسلكنا قوة. إلا أننا لم نقم باستعمالها إلا في تأمين الأمن الداخلي. لذا

---

(١) صيقل الإسلام، ص٤٤٤ وانظر أيضاً

(٢) انظر سيرة ذاتية، ص٢٦٦، وانظر أيضاً: الشعاعات ٣٣٤، وسيرة ذاتية، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٤٠٠، ٤٤١، ٤٤٧.

قمت طوال حياتي بتحقيق الأمن الداخلي إتباعاً لدستور الآية الكريمة: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ "أي لا يجوز معاقبة إنسان بجريرة أخيه أو أحبائه. إن هذه القوة لا يمكن استعمالها إلا ضد الهجمات الخارجية)[١].

ولأهمية الأمن والاستقرار في البلاد في نظره عانى وقاسى وصبر، يقول: (فقررت أن أتحمل جميع إهاناتهم وحقاراتهم وكل ما تنطوي عليه صدورهم من نيات فاسدة. وإني مستعد لتلقي كل ذلك في سبيل استتباب الأمن والنظام في ربوع البلاد، ولا سيما لراحة الأطفال الأبرياء والشيوخ الموقرين والمرضى الضعفاء والفقراء، وسعادتهم الدنيوية والأخروية... إننا نسعى بما أوتينا من قوة لإقامة سد قرآني شبيه بسد ذي القرنين أمام الفوضى والإرهاب، فالذين يتعرضون لنا إنما يهيؤن الأوساط ويمهدون السبيل للفوضى والشيوعية)[٢].

المداخلة العملية:

وتتمثل مداخلات بيع الزمان العملية في الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية، في تهدئة العامة، والسعي لانضباط الجنود، واتصالاته بالولايات الشرقية. يقول بديع الزمان في دفاعه عن نفسه أمام المحكمة العسكرية العرفية: (لقد شعرت مراراً في اجتماعات ضخمة بالمشاعر المتهيجة لدى الناس، فخشيت أن يُخلّ عوام الناس النظام وأمن البلاد بمداخلتهم في السياسة، فقمت بتهدأة تلك المشاعر الجياشة بكلام يلائم لسان طالب علم قروي قد تعلم اللغة التركية حديثاً، فمثلاً: في اجتماع الطلاب في جامع بايزيد، وفي المولد النبوي المقام في اياصوفيا، وفي مسرح الفرح هدأت- إلى حد ما- ثورة الناس وغضبهم. فلولا تلك الكلمات والخطب لعصفت عاصفة هوجاء تعصف بهم)[٣].

واستطاع بديع الزمان بخطبة واحدة في حوادث ٣١ مارس تهدئة ثماني كتائب هائجة من الجيش وجلبها إلى الطاعة، وتفاصيل خطبته تلك تُنبأ عن ذكاء وفطنة وسياسة في مخاطبة الجند الذين أطاعوا طلبه في الانضباط[٤].

---

(١) سيرة ذاتية، ص٤٦٩.

(٢) الملاحق، ص٢٣٩.

(٣) صيقل الإسلام، ص٤٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص٤٤٩، ٤٥٠.

وفي الفترة الطويلة في مدينة (وان) نحو خمس عشرة سنة قضاها في التجوال بين العشائر لإرشادهم وفي تدريس الطلاب، فضلاً عن تكوين علاقات مع الوالي والموظفين في المدينة. كان جل اهتمامه في هذه الفترة المصالحة بين العشائر. فما كان يطرق سمعه نزاع بين العشائر إلا ويتوجه إليهم ويرشدهم، حتى إنه استطاع إجراء الصلح بين "شكر آغا" و"مصطفى باشا" رئيس عشيرة ميران، بينما أخفقت الإدارة العثمانية من فض النزاع بينهما[١].

وبينما كان يقضي حياته في مغارة في معتكفه على جبل أرك إذ بالثورة تندلع في الولايات الشرقية، فطلب منه قائد الثورة الشيخ سعيد استغلال نفوذه لإمداد الثورة إلا أنه رفض المشاركة وكتب رسالة إليه جاء فيها: (إن ما تقومون به من ثورة تدفع الأخ لقتل أخيه ولا تحقق أي نتيجة، فالأمة التركية قد رفعت راية الإسلام وضحّت في سبيل دينها مئات الألوف بل الملايين من الشهداء فضلاً عن تربيتها ملايين الأولياء، لذا لا يُستل السيف على أحفاد الأمة البطلة المضحية للإسلام، الأمة التركية وأنا أيضاً لا أستله عليهم)[٢].

المعنويات أولاً وأخيراً:

وغني عن البيان ما أحدثته رسالة (خطوات ستة) في معنويات المسلمين الأتراك عشية سقوط عاصمتهم استانبول[٣] وعشية لحوق الهوان والذل بهم، فجاءت الرسالة لترفع من معنوياتهم وتحدث انقلاباً تاماً في الوضع العام، الشيء الذي عرّض حياة بديع الزمان لخطر الإعدام من الحلفاء.

واهتمام بديع الزمان بأمر معنويات الأمة لم يبدأ بالخطوات الست، فطالما كتب باذلاً جهده في رفع المعنويات التي هي مصدر القوة أولاً وأخيراً[٤].

وإذا كانت معنويات أية أمة هي العامل الأول في تقدمها في السلم وانتصارها في الحرب، وكان اهتمام بديع الزمان منصباً على معنويات الأمة التركية والأمة الإسلامية،

---

(١) سيرة ذاتية، ص٦٢.

(٢) سيرة ذاتية، ص٢٠٨. وانظر أيضاً خطابه إلى الجنود في الجريدة الدينية ١٩٠٩م، صيقل الإسلام، ص٥٤١.

(٣) انظر صيقل الإسلام، ٥٤٥-٥٤٧.

(٤) انظر كلامه عن الأمل في الشعاع الرابع عشر من الشعاعات، ص٥٤٥.

فإن اهتماماً خاصاً له قد أبداه نحو معنويات الجنود ولا سيما في تلك الفترة العصيبة من الحرب العالمية الأولى ومن تاريخ الدولة العثمانية، فخاطب الجنود مراراً رافعاً من معنوياتهم داعماً إياهم مُشيعاً فيهم النخوة والرجولة مذكراً إياهم بالدين والتوحيد[١]، كل ذلك لإدراكه لدور الجيش فيما يخص وحدة الجبهة الداخلية: (إن وضعكم العسكري القوي المنظم نقطة استناد واعتماد ثلاثين مليوناً من العثمانيين وثلاثمائة مليوناً من المسلمين)[٢]. وقد ذهب بعيداً في تعزيزه لمعنويات الجند سالباً السمعة التي اكتسبها مصطفى كمال من خلال انتصاراته عنه وموجهاً إياها لأفراد الجيش، ومصرحاً بأن أي تقصير إنما يجب توجيهه إلى القيادة وإلى الرأس المدبر[٣].

موقفه نحو الخلافة:

وفي غمرة جهوده للحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية لا يغفل بديع الزمان عن دور الخلافة وأهميتها، والتي كانت بحاجة لثقة الأمة بعد أن وقع ما وقع، فيبادر بديع الزمان إلى التأكيد على ذلك، كما يقول (انطلاقاً من مفهوم الحفاظ على مركز الخلافة وهو مركز المسلمين وموضع رابطتهم)[٤] بل إنه ألّف رسالة خاصة لدفع الشبهات عن السلطان عبد الحميد[٥].

خاتمـة:

لقد عاش بديع الزمان النورسي في ظروف سياسية بالغة الصعوبة والتعقيد والحساسية، فجاء فكره السياسي نتيجة لمعاناته وتفاعله مع تلك الظروف غنياً بالمادة العلمية. وعندما عزمت على الكتابة في موضوع المشاكل السياسية وحلولها الإدارية في فكر بديع الزمان أدركت أنه لا يمكن شمولها في بحث واحد، فاخترت أربعاً منها، لكنني ما لبث أن اكتشفت أنه- لضيق المجال المسموح به من حيث عدد صفحات البحث - لا يمكن لي إلا الكتابة في مشكلة واحدة، فاخترت موضوعاً له صلة بمستقبل

---

(١) انظر خطاباته إلى الجنود: صيقل الإسلام، ص٥٣٩.

(٢) صيقل الإسلام، ٥٤١.

(٣) انظر الشعاع الرابع عشر، ص٤٢١.

(٤) صيقل الإسلام، ص٤٥١.

(٥) سيرة ذاتية، ص٧٨.

وحاضر بلدان عديدة في العالم الإسلامي ولا سيما تلك المهددة في وحدتها الترابية كالعراق والسودان وربما تركيا، ومن قبل ذلك ما وقع في تقسيم باكستان.

وقد جاءت نتيجة البحث تشمل حلولاً من فكر بديع الزمان تصلح لمواجهة وعلاج ما يتهدد وحدة الجبهة الداخلية لكل البلدان الإسلامية، حتى تلك التي لا تواجه خطر القلاقل الداخلية، ذلك لأن موضوع المشكلة له صلة بتماسك الجبهة الداخلية وانسجامها وتآلفها بعامة.